

آداب التعلم والتعليم عند العرب

إذا كانت الأمة العربية قد استطاعت أن تقيم حضارة فاضت بذكرها أنهر الكتب والصحف في مختلف أنحاء العالم ، وإذا كانت هذه الحضارة قد استطاعت أن تمد الإنسانية بأشهى ما شهده العالم من ثمار في القرون الماضية ، فإن استقرار أحوال هذه الأمة يدل بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا كله لابد أن يكون مستندا إلى تربية خاصة استطاعت بها أن تبدع ما أبدعته وتنتج . ولا نقصد بذلك هذه التربية المنظمة المقصودة التي تتم داخل معاهد العلم ، وإنما نقصد تلك القواعد والأساليب والمعايير والآداب التي شاعت بين العرب والتي كان من شأنها أو بمعنى أصح كان من شأن العمل بها أن يضيف جديدا مرغوبا فيه إلى شخصياتهم ويحقق نموًا تربويا في سلوكهم . وسوف نعرض في الصفحات القليلة الآتية بعضا من هذه القواعد والآداب ، نقول بعضا لأن التعرض لها على سبيل الحصر والاستقراء التام مما ينوء بحمله مثل هذا المقال ، كما أنه أضخم من أن يقوم بعينه فرد واحد ، فما هي النماذج والأمثلة التي يمكن أن نذكرها في هذا المقام ؟

إعطاء العلماء حقهم من التقدير والإجلال والاحترام :

ولابد من التنبيه هنا إلى أن العرب في عصورهم الزاهرة لم يقيموا فرقا كبيرا بين العلماء والمعلمين ، فقد كان الفقهاء والفلاسفة والمفكرون والأدباء يقومون في أغلب الأحوال بواجب تعليم ما وصلوا إليه من العلم والمعرفة إلى من يطلب ذلك . وتبين لنا أهمية إعطاء العلماء حقهم من التقدير والاحترام من هذه القاعدة النفسية التي أصبح الاتفاق عليها شبه تام إن لم يكن تاما بالفعل ، وهي أن الإنسان لا يستطيع أن يعطى ما عنده من المعرفة إلى الآخرين إلا إذا أشعرناه بأنه يلقى في مقابل ذلك تقديرا واحتراما أيا كانت الصورة أو الأسلوب الذي نعبر عن هذا التقدير والاحترام . وقد تجلى العرب بهذا في مظاهر كثيرة نذكر منها ما يلي :

- فقد روى أن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : إن الشياطين قالوا لإبليس يا سيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد ؟ فقال انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد قائم يصلى ، فقالوا له إنا نريد أن نسألك ، فانصرف ، فقال له إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟ فقال لا ، فقال أترونه كفر في ساعة ؟ ثم جاء إلى عالم في

حلقة يضاحك أصحابه ويحدثهم فقال إنا نريد أن نسألك ، فقال سل . فقال هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ قال نعم ، قال وكيف ، قال يقول لذلك إذا أراده كن فيكون . قال إبليس : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد على عالما كثيرا .

- يروى عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم قال : بلغنى أنه توضع موازين للقسط يوم القيامة فيوزن عمل الرجل فيخف ، فيجاء بشيء من الغمام أو المسحاب فيوضع فى ميزانه فيرجع ، فيقال له أتدرى ما هذا ؟ فيقول لا ، فيقال هذا من علمك الذى علمته الناس فعملوا به وعلموه من بعدك .

- وينسب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه من قوله وهو مشهور من شعره :

الناس فى جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفأخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجعله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

وأشده عمر بن محمد بن عبد الحكم لبعض الحكماء :

بنور العلم يكشف كل ريب	ويبصر وجه مطلبه المرید
فأهل العلم فى رحاب وقرب	لهم مما اشتهوا أبدا مزيد
إذا عملوا بما علموا فكل	له مما ابتغاه ما يريد
فإن سكتوا ففكر فى معاد	وإن نطقوا فقولهم سديد

-خطب زياد ذات يوم على منبر الكوفة فقال : أيها الناس إني بت ليلتى هذه مهتما بخلال ثلاث رأيت أن أتقدم إليكم فيهن بالنصيحة : رأيت إعظام نوى الشرف ، وإجلال نوى العلم وتوقير نوى السن . والله لا أوتى برجل رد على ذى علم ليضع بذلك منه إلا عاقبته ،

ولا أوتى برجل رد على ذى شرف ليضع بذلك من شرفه إلا عاقبته ، ولا أوتى برجل رد على ذى شيبه ليضعه بذلك إلا عاقبته . إنما الناس بأعلامهم وعلماهم وذوى أسنانهم .

- وإذا كان هذا هو ما يجب على الناس بمختلف مستوياتهم نحو العلماء والمعلمين ، فإن على طلاب العلم أنفسهم ، بالإضافة إلى ذلك ، واجبات أخرى يلخصها على بن أبى طالب فى قوله : " إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته فى الجواب ، وأن لا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تطلبين عثرته ، وإن ذل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته " .

ولا ينبغي أن نفهم من قوله (ألا تكثر عليه السؤال) إلا أنه يريد عدم إقبال المعلم بالأسئلة ، كذلك فهو يريد من المتعلم هنا ألا يلجأ إلى أساليب التملق والترلف التى قد يتصور بعض الطلاب والمعلمين أنها دليل احترام وتقدير بينما هى أبعد ما تكون عن شئ مثل هذا . وهو إذا كان يضرب مثلا بذلك ، أخذ الطالب بثوب المعلم إذا نهض ، فليس معنى هذا بطبيعة الحال أن الاستقباح قاصر على هذا المظهر فقط وإنما يمتد ليشمل كل فعل مماثل . وعدم التملق لا يعنى ألا يسارع الطالب إلى خدمة المعلم إذا اقتضى الموقف ، فالتملق ليس خدمة حقيقية وإنما هو تظاهر بها بهدف الحصول على منفعة خاصة ، وليست المسارعة إلى الخدمة مما يدخل فى باب النفاق إذا ما كان الغرض منها منفعة المحتاج إليها بالفعل . ثم إن احترام العالم والمعلم لا يكون مطلقا من كل قيد وشرط ، وإنما يضع شرطا هاما وهو (حفظ أمر الله) والمقصود بذلك استخدام العلم فى تثبيت دعائم الدين ومراعاة المصلحة العامة للمجتمع .

الأخذ بعين الاعتبار ما يكون عليه طلاب العلم من استعداد وقدرة :

ومن الحقائق النفسية المعروفة الآن ، أن التلاميذ يختلفون فيما يكونون عليه من استعداد وقدرة بالنسبة لفروع المعرفة المختلفة ، وكذلك بالنسبة لكل ما يمكن تعلمه من مهارات الحياة المتعددة ، ومن مظاهر وعى العرب بذلك :

- فعن الحجاج بن أرطاة قال قال عكرمة : إن لهذا العلم ثمنا ، قيل وما ثمنه ؟ قال أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه . وبطبيعة الحال لا يمكن لإنسان أن يقوم بواجب هذا

الحفظ إلا إذا وعاه وآمن واقتنع به واستطاع أن ينتفع به في حياته ، وشيء مثل هذا لا يمكن أيضا أن يتم إلا إذا كان مناسباً لاستعداد الإنسان وقدراته .

- عن ربيعة بن العجاج : أتيت النسابة البكري قال لي : من أنت ؟ قلت ربيعة بن العجاج قال : قصرت وعرفت ، فما جاء بك ؟ قلت : طلب العلم ، قال : لعلك من قوم أنا بين أظهرهم إن سكت لم يسألوني ، وإن تكلمت لم يعوا عنى ، قلت : أرجو ألا أكون منهم ، ثم قال : أتدرى ما آفة المرأة ؟ قلت لا ، فأخبرني ، قال جيران السوء إن رأوا حسنا نفوه ، وإن رأوا سيئا أذاعوه . ثم قال يا ربيعة : إن للعلم آفة وهجنة ونكرا ، فأفته نسيانه ، وهجنته أن تضعه عند غير أهله ، ونكره الكذب فيه . والمقصود بأهل العلم هنا ، الذين يستحقونه ، ومعيار الاستحقاق ، الاستعداد العقلي ، ونيس ما يكون لدى الطالب من المال وما يكون عليه من علو المركز الاجتماعي .

- وقد نظم هذا المعنى بعض الحكماء فقال :

من منع الحكمة من أهلها	أصبح في الناس لهم ظالما
أو وضع الحكمة في غيرهم	أصبح في الحكم لهم غاشما
لا خير في المرء إذا ما غدا	لا طالب العلم ولا عالما

ورحم الله القائل :

أنثر درا بين سائمة النعم	أم أنظمه نظما لمهدة الغنم
ألم ترني ضيعت في شر بلدة	فلمت مضيعا بينهم درر الكلم
فإن يشفى الرحمن من طول ما أرى	وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثنت مفيدا واستفدت ودادهم	وإلا فمحزون لدى ومكتم

- ويروى عن ابن مسعود قوله : ما حدثت قوما حديثا قط لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم . وقد وصل الوعي بهذه القاعدة بالعرب إلى الدرجة التي نصح فيها الإمام مالك أبا جعفر المنصور بألا يفرض كتبه على مختلف الأقطار الإسلامية عندما عزم ذلك من فرط إعجابه بمالك ، مع أن أمرا كهذا كان من شأنه أن يبعث السرور بهذا الإمام الأمين ، فقد قال له أبو جعفر : إنى قد عزمتم أن أمر بكتبتك هذه التي وضعتها (يعني الموطأ) فنتمخ

نسخا ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وأمرهم أن يعلموا بما فيها لا يتعدوها إلى غيرها ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث فإني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم .

فكان رد مالك : لا تفعل فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم ، وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل بلد لأنفسهم . فقال أبو جعفر : لعمري لو طوعني على ذلك لأمرت به .

أهمية حسن الاستماع أثناء طلب العلم :

فلو أنك تتبعت مناقشة تجرى بين عدد من الناس في الوقت الحاضر ، فسوف تلمس ظاهرة عجيبة لا تحظى بالاهتمام وقاية وعلاجاً رغم ما تسببه من ضياع الكثير من الوقت وتبديد جزء كبير من فائدة المناقشة ، أما هذه الظاهرة ، فهي عدم التزام المستمع بالصمت والسكون ليحسن الاستماع إلى ما يقوله المتكلم ، فيسارع أحيانا بالرد عقب سماعه لجملة أو جملتين دون انتظار لسماع بقية الكلام ، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى إساءة الفهم وبالتالي إساءة الرد . . . وهكذا ، ومن هنا كان قول الحسن بن علي لابنه : يا بني إذا جالست العلماء ، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت ، ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك .

وروى رجل من أهل الشام عن يزيد بن حبيب قال : إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع . وقال : وفي الاستماع سلامة وزيادة في العلم ، والمستمع شريك المتكلم . ومن أحسن ما قيل في ذلك قول نصر بن أحمد الخبزري :

لسان الفتى حنق الفتى حين يجهل	وكل امرء ما بين فكيه مقل
إذا ما لسان المرء أكثر هنزه	فذاك لسان بالبلاء موكل
وكم فاتح أبواب شر لنفسه	إذا لم يكن قفل عليه مقل
ومن أمن الآفات عجباً برأيه	أحاطت به الآفات من حيث يجهل
أعلمهم ما علمتى تجاربي	وقد قال قبلى قائل متمل
إذا قلت قولاً كنت رهن جوابه	فحاذر جواب السوء إن كنت تعقل

التعلم عملية مستمرة :

فالسبب من الناس يتوهم خطأ أن لطلب العلم فترة محددة يمكن للإنسان أن يحصل فيها على ما هو بحاجة إليه ، ثم ينتهي الأمر بعد ذلك ، فالمعرفة لا حدود لها وكل يوم يمر ، تتكشف لنا فيه أفكار جديدة ، والحياة تتجدد وتتغير يوما بعد يوم وما نراه صالحا لليوم قد يكشف الغد فيه جوانب أخرى تجعلنا نغير الرأي في صلاحيته . . وهكذا . تلك أيضا حقيقة أخرى من الحقائق التي يلمسها المشتغلون بالعلم التربوي ، ومن الطريف حقا أن نجد لدى العرب من الأقوال والمواقف ما يظهر اهتمامهم بهذا الأمر ، وإن كنا لا نستطيع أن نطمح في التطابق بين مبررات الأمت ومبررات اليوم ، وكيفينا أن يكون هناك تشابه كبير ووعي واضح .

- فيروى عن مالك بن أنس قوله : لا ينبغي لأحد عنده العلم أن يترك التعلم .

- وعن ابن عباس أنه قال : منهومان لا تقضى نهمتهما ، طالب علم وطالب دنيا .

- ومثله سفيان بن عيينة : من أحوج الناس إلى طلب العلم ؟ قال أعلمهم ، لأن الخطأ منه أبح .

التبكير في التعلم :

فخصوية كل منا تتضمن العديد من العادات السلوكية التي يتكون الجزء الأكبر منها في السنوات الأولى من عمر الإنسان حتى يصعب على الكثيرين تغييرها رغم أن هذا التغيير مما تجيزه القوانين النفسية ، ومن هنا كانت أهمية البدء في التعليم مبكرا خاصة ولأن الإنسان في فجر عمره يكون عادة قليل الشواغل والهموم والمتاعب مما يتيح له فرصة التفرغ لطلب العلم واستيعابه . فإذا أضفنا إلى ذلك ما هو معروف الآن في علم النفس من أن لذكاء الإنسان حدا معينا لا ينمو فيه إلا بشكل بطيء جدا ، أدركنا أهمية هذه القاعدة ، وأدركنا أيضا عظمة العرب في معرفتهم وعلمهم بها :

- فقد قال الحسن بن علي لبنيه ولبنى أخيه : تعلموا العلم فإنكم إن تكونوا صغارا قوم تكونوا كبارهم غدا ، فمن لم يحفظ فليكتب . وعن الحسن أيضا أنه قال : طلب الحديث في الصغر كالنقش في الحجر .

- ومن أقوال الشعراء العرب :

يقوم من ميل الغلام المؤدب ولا ينفع التأديب والرأس أشيب

وقول آخر :

إن الغلام مطيع من يودبه ولا يطيعك كهل حين يكتهل

- ونكر عثمان بن عروة عن أبيه بن الزبير أنه كان يقول لبنيه : يا بني إن أزهـد الناس في عالم ، أهله ، فهلـموا لى فتعلموا منى ، فإنكم توشكون أن تكونوا كبار قوم ، أنى كنت صغيرا لا ينظر إلىّ ، فلما أدركت من السن ما أدركت جعل الناس يسألوننى ، وما شىء أشد على أمرىء من أن يسأل عن شىء من أمر دينه فيجهله .

الترابط بين العلم والعمل :

فقد ورثت الإنسانية من الفكر اليونانى تلك التفرقة التى أقامها فلاسفته بين النظر والعمل ، بين الفكر والتطبيق ، على أساس أن الأول مما يقع فى نطاق اختصاص عليـة القوم ، أما الثانى فيختص به العبيد ، لأن الأول لا يتطلب جهدا بنفيا شاقا ومخاطرة على عكس الثانى ، ومن المؤسف حقا أن الكثيرين من الفلاسفة الإسلاميين قد تابعوا - بحكم التأثير - المفكرين الإغريق ، بينما كانت هذه التفرقة لا تتفق وروح الإسلام ومبادئه الذى حرص تمام الحرص على أن يوثق الروابط بين الفكر والتطبيق وبين العلم والعمل ، فهو بحكم كونه عقيدة تهدف بالدرجة الأولى إلى ترشيد السلوك الإنسانى وتعقيله لكى يصبح متوافقا مع ما ينبغى أن يكون ، لا بد أن يعطى العمل اعتبارا هاما ، ولما كانت الخطوط العريضة لهذا العمل تختلف كثيرا جدا عما ألفه الناس وتعودوه وخاصة وقت نزول الرسالة المحمدية ، كان من الضرورى أن يعطى اهتماما آخر للنظرية التى يقوم عليها هذا العمل .

- فهذا الحسن يقول : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم ما دلهم على ما فعلوا .

- وعن على رضى الله عنه قال : يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم فوافق عمله علمه وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم (يخالف علمهم ،

ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا فيهاى تراقيهم) يخالف علمهم عملهم ، ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا فيهاى بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله عز وجل .

التدرج فى التعلم :

فلمعرفة درجات ومستويات يصعب على المتعلم أن يستوعبها جملة واحدة ، لاختلاف استعداده باختلاف مراحل نموه فما هو صالح تعلمه فى الشباب ، يعسر تعلمه فى الطفولة ، كما أن العلم نفسه - حتى لو غضضنا البصر عن اختلاف مراحل نمو الإنسان بالنسبة له مراحل وتصنيفات تختلف باختلاف الدرجة التى وقف عندها للمتعم من طلبه ، ومن هنا كانت هذه القاعدة التى تقترض من القائم بأمر التربية والتعليم أن يراعيها عند قيامه بواجبه فى هذا الشأن :

- عن يونس بن يزيد قال لى ابن شهاب : يا يونس لا تكابر العلم ، فإن العلم لودية ، فأياها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه ، ولكن خذه مع الأيام والليالى ، ولا تأخذ العلم جملة ، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ، ولكن الشئ مع الأيام والليالى .

عندما نطلب العلم لا بد من أن نراعى مدى ما يمكن أن يحققه لنا من المنفعة :

فقد كانت هناك دعوة مشهورة يذهب القائلون بها إلى أن الإيمان إذ يسعى لطلب المعرفة ينبغى ألا يطلب فائدة أو منفعة إلا أن يكون ذلك للاستمتاع الفكرى ، بل لقد غالى فلاسفة الإغريق فى ذلك وادعوا أن المعرفة إذا لم تتجرد من المنفعة والفائدة لا ينبغى أن تدخل فى نطاق العلم الصحيح ، وما نحن فى القرن العشرين الآن نستسخف هذا الرأى ونقول بعكسه ، بل وارتبطت إحدى الفلسفات المعاصرة بكلمة المنفعة والفائدة وهى للفلسفة البرجماتية وخاصة كما نقرؤها فى كتابات وليم جيمس ، وكما هو طريف حقا أن نلمس شيئا من هذا لدى العرب :

- أنشد محمد بن مصعب لابن عباس :

ما أكثر العلم وما أوسعاه من ذا الذى يقدر أن يجمعه

إن كنت لا بد له طالبا محاولا فالتمس أنفعه

- وإذا كان البعض يهاجم ربط العلم بالمنفعة على أساس أن ذلك يجعله شخصيا ،
فإننا نجد من الأقال العربية ما يفيد أن المقصود هنا ، فائدة مجموع الناس ، قال مالك بن
دينار : من طلب العلم لنفمه فقليل العلم ، ومن طلبه للناس ، فحوائج الناس كثيرة .

- وقالت امرأة للشعبي : أيها العالم افتنى فقال : إنما العالم من خاف الله عز وجل .
والخوف من الله ، كما نفهم من السياق العام ، أحد مظاهره ، أن يطلب بالعلم منفعة الناس
ومن هنا قال أبو الدرداء : إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، عالم لا ينتفع بعلمه .
وروى عن سلمان الفارسي أنه قال : إن العلم لا ينفذ ، فاتبع منه ما ينفك ، وقيل أيضا : من
لم ينفعه قليل علمه ضره كثيرة .

وأثمد الشاعر العربي يقول :

إذا أنت لم ينفك علمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وإن زانك العلم الذي قد حملته وجدت له من يجتنيه ويحمله

مصاحبة العلماء

فمن القوى الهامة التي تلعب دورا خطيرا في توجيه سلوك الإنسان وتشكيله ، من
يحيطون به من أقران حتى لقد قيل أن المرء بقريته يقرن ، وبناء على هذا فإنك إذا أردت أن
تكون صورة عن إنسان ما - فإنك تستطيع أن تتف على الكثير من أجزاء هذه الصورة لو
أنك استطعت أن تأخذ فكرة واضحة عن زملائه وأصدقائه . فإذا ما كان ذلك كذلك ، فما بالك
إذا حرص الإنسان على مجاورة العلماء ومجالستهم ومصاحبته أطول قدر ممكن من الوقت
؟ ولعل هذا هو السر في قول الشعبي :

جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم ، وإن أسأتم تألوا لكم وغدروكم ، وإن
أخطأتم لم يعنفوكم ، وإن جهلتم ، علموكم ، وإن شهدوا لكم نفعوكم .

ضرورة المساعلة والمناقشة في التعليم :

فالإنسان الذي يقف أمام عجيبة من عجائب الحياة دون أن نشير لديه التساؤل عنها ،
يقعد مقوما هاما من مقومات إنسانيته ، ذلك أن الإنسان يتميز دون سائر الكائنات الحية
الأخرى في قدرته على الاندهاش ، على أن يدفعه هذا الاندهاش إلى جمع المعلومات التي

تطفئ ظمأه وتشبع نهمه المستمر نحو المعرفة ، ومن هنا كان ضروريا ألا يستحي إيمان من أن يسأل عما جهل :

- قالت عائشة رحمها الله : رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن .

- وقال أمية بن الصلت :

لا يذهبن بك التفريط منتظرا	طول الأناة ولا يطمح بك العجل
فقد يزيد السؤال المرء تجربة	ويستريح إلى الأخبار من يمل
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها	ولا البصير كأعمى ماله بصر
فاستخبر الناس عما أنت جاهله	إذا عصيت فقد يجلو العمى الخبر

- ودعا معاوية بن أبى سفيان دعبلا النمابة فسأله عن العربية وسأله عن أنساب الناس ، وسأله عن النجوم ، فإذا الرجل عالم ، فقال يا دعبل ، من أين حفظت هذا ؟ قال حفظت هذا بقلب عقول ، ولسان سؤول .

- وعن ابن شهاب قال : إن هذا العلم خزائن تفتحها الممالة .

عدم حجب العلم ووجوب نشره :

إن الفرد منا إذا اكتسب علما ، فإن قيمة هذا العلم إنما تكون بتعميم فوائده بين الناس كما سبق أن بينا ، ويرتبط بهذا أيضا ألا يكون العلم احتكارا ، وأن يبادر المتعلم بإذاعة ما علمه على الناس حتى تتم الشركة فى العلم ، فهذا ابن عباس يقول : مثل علم لا يظهره صاحبه كمثل كنز لا ينفق منه صاحبه . ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد نم فى قرآنه المجيد هؤلاء الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها على الناس .

وروى أبو زيد بن أبى العمر عن ابن القاسم قال : كنا إذا ودعنا مالكا يقول لنا : اتقوا الله وانثروا هذا العلم ولا تكتموه . كذلك كان مالك بن أنس يقول : بلغنى أن العلماء يسألون يوم القيامة كما تسأل الأنبياء ، يعنى عن تبليغه .

وذكر جعفر بن برقان : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز : أما بعد فمر أهل الفقه والعلم من عندك فلينثروا ما علمهم الله فى مجالسهم ومساجدهم ، والسلام .

لا إفتاء إلا فيما نعلم :

ذلك أنه يمز على بعض الناس حتى من العلماء أو من المشبهين بهم أن يسألوا فى أمر يعجزون عن الإجابة عنه فيفتون فيه ولو لم يكن هذا الأمر مما يقع فى حدود اختصاصهم ومعرفتهم ، أما العلماء الذين يستحقون هذه الصفة حقا فهم هؤلاء الذين لا يتخرجون إذا ما سئلوا فى أمر لا يعلمونه أن يعتذروا عن الإجابة . وتبدو المسألة أخطر من ذلك بالنسبة للمعلمين بالذات ، فالتلاميذ يأخذون ما يقوله المعلم على أنه صحيح لا يمكن الشك فيه ، ومن هنا فإنه إذا أجاب فى مسألة لا يعلمها إجابة غير صحيحة ، وسمع التلاميذ الإجابة الصحيحة من شخص آخر فسوف يكذبونه ولا يكذبون المعلم ، ومن هنا قول على : خمس احفظوهن لو ركبتم الإبل لأنضيتوها قبل أن تصيبوهن : لا يخاف عبد إلا نذبه ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحى جاهل أن يسأل ، ولا يستحى عالم إن لم يعلم أن يقول الله أعلم ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا خير فى جسد لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له .

ولا شك أن المعلم أو العالم إذا فعل ذلك ، اتسم بصفة هامة لا بد منها وهى التواضع ومن ثم فقد قالوا أن المتواضع من طلاب العلم أكثر علما ، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء . وقيل لبرزجمهر : ما النعمة التى لا يحسد عليها صاحبها ؟ قال : التواضع ، قيل له : فما البلاء الذى لا يرحم عليه صاحبه ؟ قال : العجب . وقال : التواضع مع السخافة والسبخل أحمد من الكبر مع السخاء والأدب ، فأعظم بحسنة عفت عن سيئتين ، وأفظع بعيب أفسد من صاحبه حسنتين .

ويرتبط بهذا أيضا إجابة الإنسان عن تساؤل ظنا منه أن ذلك هو الحق ، بينما يشهد آخر أن ذلك غير صحيح ، ويأتى الدليل على ذلك ، فلا يستحى أن يعترف بأنه أخطأ مهما كانت منزلته ، فها هو عبد الله بن مصعب يروى عن عمر بن الخطاب قوله : لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى العصابة ، يعنى يزيد بن الحصين الحارثى ، فمن زاد أقيبت زيادته فى بيت المال ، فقامت امرأة من صف النساء طويلة فيها فطس فقالت ما ذاك لك ، قال ولم ؟ قالت لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَأَنْتِمْ إِخْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

المعرفة تأتي عن طريق الخبرة والاكتساب :

فمن المعروف أن جمهرة كبيرة من الفلاسفة القدماء وعلى رأسهم مقراط وأفلاطون ، تؤكد أن الإنسان يولد مزودا بعدد من الأفكار الرئيسية التي منها ينمى سائر معارفه الأخرى حتى تلك التي يتوصل إليها نتيجة البيئة والخبرة ، وعندما هب بعض الفلاسفة للغربيين المحدثون ينادون بالعكس من ذلك بأن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء ، ثم يكتسب بعد ذلك معارف من الخبرة ، عد ذلك تطورا كبيرا نحو الأرقى والأحسن ، ومن حسن الحظ حقا أن نجد وعيا لدى العرب بهذا ، وعيا بأن المعرفة مكتسبة وليست فطرية ، فقد قال أحدهم : إن الرجل لا يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . ومن رجز لسابق اليربوري :

قد قيل قبلى فى الكلام الأكم إنى وجدت العلم بالتعلم

طائفة أخرى من التقاليد والآداب التربوية :

ولا يقتصر الأمر على ما سبق ذكره ، وإنما عرف المسلمون عددا آخر من التقاليد والآداب التي تميزت بها تربيتهم ، من ذلك على سبيل المثال :

- العالم أحد الناس وألومهم ، فعندما سألت امرأة إبراهيم النخعي عن علة هذا الأمر ، قال لأن " العلم معنا والجهل مع مخالفينا ، وهم يأبون إلا نفع علمنا بجهلهم ، فمن ذا يطيق الصبر على هذا ، وأما اللوم فأنتم تعلمون تعذر الدرهم الحلال ، وإنا لا نبتغي للدرهم إلا حلالا ، فإذا صار إلينا لم نخرجه إلا فى وجهه الذى لا بد منه " .

- السعى والسفر من أجل العلم : فقد كان طالب العلم إذا سمع عن عالم وكان هذا العالم يقيم فى بلد آخر ، سافر وسعى إليه مهما كان هذا البلد بعيدا ، مع ما نعرفه من مشاق السفر فى ذلك الوقت ، فعن ابن عباس قال : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، فلو أمأ أن أرسل إليه حتى يجيننى فيحدثنى فعلت ، ولكنى كنت أذهب إليه فأقبل على بابه حتى يخرج إلى فيحدثنى . وقال الشعبي : لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع .

- فلنطلب المعرفة مهما كان مصدرها : وفى هذا المعنى روى عن على أنه قال : العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدي المشركين ، ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن

سمعها منه ، وقال بلال بن أبى بردة : لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا .

- مراعاة المساواة بين المتعلمين : وفى ذلك قال موسى بن عبد الله الخاقانى :

علم العلم لمن أتاك لعلم واغتنم ما حبيت منه الدعاء

وليكن عندك الفقير إذا ما طلب العلم والغنى سواء

- لا بد لطلاب العلم من الالتزام بالوقار : فهناك بعض الناس يظنون خطأ أن من مظاهر التواضع كثرة الضحك والهزل ، ومن هنا قال على بن أبى طالب : تعلموا العلم فإذا تعلمتموه فاكظموا عليه ولا تخطوه بضحك ولا بلعب فتمجه القلوب .

وبعد

فهذه هى نماذج وأمثلة لما سارت عليه عملية التربية والتعليم عند العرب من آداب وتقاليد فلنتأملها جيدا فما ظل صالحا إلى اليوم فلنتبناه ، وما لم يصلح فلننحج جانبا ، وفى ظنى أن كل ما ذكرناه فى هذا المقام ما زال حتى اليوم يتمناه ويأمله المشتغلون بالعمل التربوى والباحثون فى العلم التربوى والنفسى .